شاهد على العصر (٢)

● وفى مساء الأحد الموافق للعشرين من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٧ هـ (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٨٦) أُذيعت الحلقة الثانية من الحوار . وقدَّم الأستاذ عمر بطيشة للحلقة بقوله :

● أيها الأصدقاء .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . التقينا فى حلقة الأسبوع الماضى مع الجزء الأول من شهادة المفكر الإسلامى الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى عميد كلية الشريعة بقطر ، وقد تناول الثورة العلمية والتكنولوچية الهائلة ، وعودة العلم إلى تأييد الدين فى العالَم المتقدم .

وقال : إن العالَم الإسلامى أصبح فى هذا العصر عالة على الغرب ، بعد أن كان هو مصدر التقدم للغرب ، حينما كان العلم فى بلادنا غير منفصل عن الدين. أما الآن فقد فصلنا الدين عن العلم والتعليم فى العالَم الإسلامى .

وقال : إن سقوط الخلافة الإسلامية على ما كان فيها من ضعف أفقد المسلمين الهوية الإسلامية الجامعة ، فتمزق العالَم الإسلامى إلى دول ودويلات متفرقة متنازعة فى عالم يجنح إلى التكتل والتجمع والمصالحة والوفاق .

وقال : إن الاستسلام للجبرية السياسية العالَمية هو تهويل لقوة الآخرين كما أن عدم تقدير قوتهم تهوين من هذه القوة .

وأكَّدَ أننا كلنا مسئولون عن التخلف والضعف الذى وصل إليه عالمنا الإسلامى ، وأن عصرنا هو عصر الصحوة الإسلامية العالَمية ، والمواجهة الفكرية الحضارية مع الغرب ومع الغزو الفكرى ، لأن الانبهار بالحضارة الغربية بدأ ينقشع بعد أن بدأ أبناؤها أنفسهم يثورون عليها .

وأكَّدَ أن الإسلام هو المنهج المتوازن بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة ، وأن

الدين أصبح الآن للشباب وليس للكهول فقط كما كان قديماً ، وأن مظاهر الصحوة الإسلامية تتمثل فى الشباب المثقف والكتاب الإسلامى والأزياء والبنوك والشركات والمعارض الإسلامية .

وقال : إننا الآن نعيش مرحلة المواجهة مع حضارات العالَم ، ونعيش مرحلة رفض التبعية ، وأننا نقع بين طرفى نقيض هما : الإفراط والتفريط .

أما المطلوب - من وجهة نظره وفى شهادته - فهو التوازن والاعتدال .

ثم تناول منهجه فى الاجتهاد ، ومفهومه فى التجديد فى الدين ، وهو إعادته إلى ما كان عليه ، وتساءل عن كيفية الوصول إلى برنامج أو تصور إسلامى ، وأوضح الفرق بين الاجتهاد الإنشائى والاجتهاد الإنتقائى .

أيها الأصدقاء .. والآن إلى الجزء الثانى من شهادة هذا المفكر المصرى الإسلامى الكبير .

الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى - عميد كلية الشريعة بقطر - أهلا بكم فى الجزء الثانى من شهادتكم .

● ● أهلا بكم يا أستاذ عمر .

● الحقيقة أن الجزء الأول استغرق معظمه فى صدر الشهادة الذى رصدت فيه فضيلتكم أهم الظواهر المتعلقة بهذا العصر الذى نعيشه . ننتقل فى هذا الجزء إلى بعض الأسئلة التفصيلية ، ويمكن أن أستطرد من ختام الجزء الأول الذى كنتم فضيلتكم تتحدثون فيه عن قضية التجديد فى الفكر الإسلامى المعاصر ، وأطرح على فضيلتكم هذا التساؤل الذى قاله الكثيرون فى هذه الأيام : إذا كان الدين واحداً ، فلماذا تتعدد الرؤى والمناهج وزوايا التفكير ، وتختلف فيما بينها حركات التجديد إلى حد الصدام أحياناً ؟ ؟

● ● بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه .

وبعد ...

فمن سُنَّة اللّه فى البَشر أن يختلفوا ، ولا خطر فى الاختلاف إذا أمكن أن يجتمع الناس على الأصول الكلية والأهداف الكبرى . وقديماً وُجِدَ فى الفكر الإسلامى مدارس فقهية ، ومدارس كلامية ، وتعايش بعضها مع بعض ، ولكن ساد المنهج الأوسط فى الغالب . الوسطية هى التى تفوز فى النهاية ، فأهل السُنَّة غلب مذهبهم على المذاهب الأخرى لأنهم وَسَط فى الفرق ، كما أن المسلمين وسط فى الأمم ، وحتى مذهب أهل السُنَّة جاء مَنْ يجدِّدها ويطعمها مثل مدرسة ابن تيمية ، لا مانع أن يوجد فى عصرنا رؤى متعددة ، وأن يوجد هناك زوايا للنظر فى مختلف الأمور ، على شرط أن ينظر كل واحد للآخر أنه ليس عدوه، أعنى أن يكون هناك قدر مشترك بحيث يُحسن الأخ الظن بأخيه ، وقد قال الإمام الشافعى كلمة ينبغى أن تكون شعاراً : « رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب » الاحتمال فى الجانبين احتمال الخطأ عندى ، واحتمال الصواب عند صاحب الرؤية الأخرى ، هذا يُقرِّب المسافة بين الطرفين ، إنما الخطأ والخطر هو أن يظن كل إنسان له رؤية خاصة أنه يمثل الحق الذى لا يشوبه باطل ، والصواب الذى لا يقبل الخطأ .

لا .. هذه رؤى وإجتهادات بَشرية ما دامت فى إطار الإسلام العام ، هناك أيضاً يمكن أن نختلف ولكن على أساس أن نختلف اختلاف تنوع وليس اختلاف التضاد . وهنا .. شيخ الإسلام ابن تيمية له عبارة فى بعض الاختلافات التى ترد عن الفقهاء والمفسرين فى شرح بعض الأشياء .

أضرب لك مثلاً يُقرِّب الموضوع : حينما يقول المفسرون فى قول اللّه تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١) تجد من مفسرى السَلَف مَنْ يقول : الصراط المستقيم هو الإسلام ، وآخر يقول : الصراط المستقيم هو القرآن ، وآخر يقول:

---

(١) الفاتحة : ٦

الصراط المستقيم هو السُنَّة ، وآخر يقول : الصراط المستقيم هو اتباع أبى بكر وعمر وباقى الخلفاء الراشدين .

ابن تيمية يقول : ليس هذا الاختلاف إختلاف تضاد وتناقض ، إنما هو اختلاف تنوع .. أى أن كل واحد يضرب مثلاً بما يرى أن الشخص يحتاج إليه ، تقول : الصراط المستقيم أنك تتبع السُنَّة إذا رأيته مفرِّطاً فى اتباع السُنَّة ، وإذا كان هناك واحد يهمل شأن القرآن تقول له : الصراط المستقيم هو أن تتبع القرآن ... وهكذا ، فمن الممكن أن توجد رؤى متعددة للاجتهادات الإسلامية .

واحد يهتم بجانب العقيدة ، وآخر يهتم بتحرير العبادة من البدع ، وثالث يهتم بالجانب الخُلُقى ، وغيره يهتم بالجانب السياسى ووجود اتجاه إسلامى سياسى أو معسكر إسلامى سياسى ، وواحد يهتم بالتربية والتكوين .

ليكن هذا .. على أن تكون هذه الرؤى المتعددة تمثل تنوعاً وتخصصاً .. كل واحد يهتم بالجانب الذى يرى نفسه أقدر عليه ، وأقدر على الإحسان فيه ، بشرط ألا تؤدى إلى التصادم ، وألا يحاول كل واحد هدم الآخرين ، بل يُحسن الظن بالآخرين .

ويلتقى الجميع فى القضايا الكبرى .. هناك قضايا لا بد أن يقف الجميع فيها صفاً واحداً . أقول هنا : إنه يجب أن تكون نظرة الناس الذين يقفون فى الجانب الإسلامى - والأصل كما قلت : دينهم واحد .. لا ينبغى أن تفرقهم الرؤى الجزئية المختلفة . وهناك قاعدة معروفة اسمها « قاعدة المنار الذهبية » .. قاعدة وضعها السيد رشيد رضا رحمه الله صاحب المنار ، وتبناها الشيخ الشهيد حسن البنا ، لها مدلول جيد جداً ، وعبارتها عبارة مركزة ودالة أبلغ الدلالة تقول : « نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه » وهذه يجب أن تكون شعار كل العاملين للإسلام : نتعاون فيما اتفقنا عليه ، وما اتفقنا عليه كثير .

● لو أُذِنَ لى الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى بالإضافة هنا فى هذه الجزئية .. نتذكر دور مصر على مدى التاريخ الإسلامى فى التجميع فى وجه التفريق ، وفى التوحد فى وجه التشرذم والمذهبية والتمزق.. والاختلافات والانقسامات التى ذكرتموها فضيلتكم الآن .. أعتقد أن دور مصر هنا دور لا يُنكر .

● ● نعم .. دور مصر عن طريق القادة الذين حكموا مصر فى وقت من الأوقات مثل صلاح الدين الأيوبى ، وغير هؤلاء . دور فى العصر الحديث مثل جمال الدين الأفغانى ومحاولة إيقاظ العالَم الإسلامى وتحريكه ، والدعوة إلى الوحدة ، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية فى مقابل الدعوات التى أرادت أن تفرق المسلمين بين عصبيات إقليمية أو عصبيات عنصرية أو رايات مختلفة ، وكذلك تلميذه الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ، والحركة الإسلامية الحديثة ودعوتها إلى توحيد المسلمين .. الحركة الإسلامية الحديثة - الحقيقة - مبعثها الأول مصر .

وأنا أقول بحق : إنى رأيتُ أثر مصر فى أنحاء العالَم كله ، فحينما ذهبت إلى الفلبّين وجدت الذين يقودون الثورة الإسلامية فى الفلبين أصلهم شباب درسوا هنا فى مصر .. فى الأزهر .. وعادوا يحملون الدعوة الإسلامية ويحملون الثورة على الديكتاتورية وعلى التعصب الأعمى ضد الإسلام هناك .

فدور مصر لا يُنكر ، وهذا ما يجعلنا فى الحقيقة نقول : إن مصر ينبغى أن تظل رائدة وقائدة .. لا ينبغى أبداً أن تترك دورها لتنحصر وتعيش لنفسها كما ينادى بعض الناس ، ومصر ينبغى أن يظل دورها دور الريادة والقيادة للعالَم الإسلامى بعيداً عن الإقليمية .

طبعاً المطلوب من كل مصرى أن يعمل لبلده ، طبيعى - حتى الحكم الإسلامى - أن الإنسان مطلوب أن يعمل لنفسه : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » .. الجيران لهم حق ، وأقربهما باباً له حق أكبر من غيره ، والأقربون أولى بالمعروف .

هذه طبيعة الأشياء حتى فى الزكاة ، نقول إن الزكاة تؤخذ من الإقليم لتصرف فيه ، تؤخذ من أغنيائه لترد على فقرائه ، إذا استغنى أهل الإقليم نذهب إلى مَنْ هو أبعد منه ... وهكذا .

فلا يمنع الإسلام أن يعمل الإنسان لوطنه ولإقليمه الذى يعيش فيه ، ولكن ليس معنى هذا أن يُسجن داخل هذه الإقليمية ، ولذلك الذين يريدون لمصر أن تنحصر فى الإقليمية المصرية يقتلون مصر ، لا يريدونها أن تظل مخلصة لدورها الريادى التاريخى ، مصر من عهد صلاح الدين وعهد قطز ..

بقيادة صلاح الدين هزمت الصليبيين فى حطين واستردت بيت المقدس .. وبقيادة قطز هزمت القوى الأخرى ، قوة التتار فى عين جالوت بعد أن أصبح هؤلاء التتار أو المغول هم الذين يرعبون العالم .. بمجرد أن يُذكر التتار - ينتشر الرعب فى كل مكان - فقد كانوا مثل : ﴿ الرِّيحَ العَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (١) . كان المثل السائر : « إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق » ، نفس ما كنا نسمعه فى هذا العصر ، أسطورة القوة التى لا تُقهر ! كان هذا حال التتار وأسقطوا بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وسالت الدماء من المياذيب فى الشوارع واسودَّ نهر دجلة مما ألقى فيه من كتب . بعد سنتين فقط - سنة ٦٥٨ هـ - كانت معركة عين جالوت بقيادة قطز القائد المملوكى مع الجيش المصرى ، وكانت معركة من المعارك الحاسمة فى التاريخ ، ونصر الله المسلمين فى الخامس والعشرين من رمضان فى سنة ٦٥٨ هـ بعد سنتين فقط . هذا دور مصر .. ولكن حينما تُقاد بالإسلام .

قطز كادت تدور عليه الدائرة لولا أنه حينما رأى التخاذل والفرار من بعض الناس مما كان فى قلوبهم من رعب بالنسبة للتتار ألقى بخوذته على الأرض وصاح الصيحة التاريخية الشهيرة : « وا إسلاماه » هذه غيرت المجرى .. جعلت الجنود يعودون حينما تنادى بالإسلام .

---

(١) الذاريات : ٤١ - ٤٢

● هذه هى مصر .. ويمكن حتى فى الجزئية التى بدأنا بمناقشتها وهى جزئية وقوف مصر فى وجه التمذهب والتشرذم بين الفرق الإسلامية المختلفة نجد أنه رغم أن حكامها كانوا من الشيعة فى العصر الفاطمى إلا أن مصر لم تتشيع ، وهذا يدل على طبيعتها فى رد التمذهب وفى محاولة توحيد الإسلام فى وحدة واحدة .

● ● هم لم كونوا مجرد شيعة ، بل كانوا من غلاة الشيعة ، وهم لم يكونوا فاطميين ، ثبت تاريخياً أنهم ليسوا من نسل فاطمة . اسمهم « العبيديون » وهذا اسمهم الحقيقى . رغم أنهم عاشوا فى مصر وكان لهم حكامهم ، وكانت لهم أبهتهم ، وكانوا ينافسون الخلافه العباسية ، ولكن لم يستطيعوا أن يتركوا أثراً فى ضمير الشعب .

مصر الآن هى البلد الوحيد الذى ليس فيه طوائف من الناحية الدينية ، فهذا الغلو الذى حمله الفاطميون ، بمجرد ذهابهم أذهب الله كل آثارهم ، ولم يبق إلا بعض البدع والتقاليد مثل الموالد ونحوها ، وهذه الأشياء لا تتعلق بالفكر إنما تتعلق بالسلوك الذى يؤثر على بعض العوام ، فمصر بخير ، وكما قلت فى الحديث السابق : إنى أجد مصر أرجى بلاد الله للإسلام ، ونستطيع أن نجعل مها قوة عالمية لا نظير لها .

● ولكن لو أذن لى فضيلة الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى .. كما ذكرتم فضيلتكم : إن مصر هى محراب الإسلام وحصنه الحصين ، ومصر التى شهد لها المؤرخ العالمى « جريستد » عالِم المصريات الشهير عندما سمى عنوان كتابه ومؤلفه عن مصر « فجر الضمير » دلالة على أن مصر عرفت فى الحضارة الفرعونية الثواب والعقاب والبعث والجنة والنار والضمير ، فما تفسير فضيلتكم أنه رغم أن الإنسان المصرى هو سليل هذه الروح الإيمانية المتدينة العميقة الأصيلة ، نرى بعض السلبيات وبعض الانحرافات هنا وهناك على هذه الأرض فى هذه المرحلة من العصر ؟

● ● لا شك أن مصر قلعة من قلاع الإسلام الكبرى ، وهذا أيضاً يجعل هناك قُوى كثيرة تتربص بها ، وتحاول أن تكيد لها فى الخفاء ، ولا أريد أن أضخم هذا - كما قلنا ، لأنه ليس من منهجى التهويل فى هذه الأمور ولا التهوين، لكن هناك بالفعل بعد سقوط الخلافة العثمانية انتقلت القُوى المعادية من الآستانة (استامبول) إلى القاهرة ، خشية أن تقود مصر تياراً إسلامياً عالمياً جديداً ، فمن أجل هذا يجب أن نحذر من دسائس هذه القُوى من ناحية .. ومن ناحية أخرى إن الاستعمار الذى احتل مصر فترة طويلة من الزمن خرَّب ما خرَّب وترك آثاره ، وهناك أيضاً أوضاع وأنظمة تعرضت لها مصر تسببت فى هذا الذى نراه من سلبيات وتسيب وانحراف . ولكن للإنصاف أقول : إن هذا لم يمس لباب الإنسان المصرى . نستطيع بقليل من التصميم والإصرار على بناء هذا الإنسان أن نعيده إلى فِطرته لأن الفِطرة سليمة .. إذن ليس علينا إلا أن نجلو الصدأ عن هذه الفِطرة ونزيل العوائق ، وننقى هذا الزرع من الأشياء التى تحاول أن تأكله أو أن تبتلعه ، فنحتاج إلى أن نتيح الفرصة لجو صحى يتربى فيه الإنسان المصرى المسلم على الإسلام الصحيح . وهذا أمر يجب أن يتعاون فيه الجميع وبخاصة أن الهدم دائماً أسهل من البناء . وقد عبَّر عن هذا الشاعر تعبيراً جيداً حينما قال :

فلو ألفُ بانٍ خلفهـــم هادمٌ كفى فكيفَ بِبَانٍ خَلْفَهُ ألفُ هَادِمِ ؟ !

أى إن ألف بانٍ لو كان من ورائهم هادم واحد يستطيع أن يزيل آثار بنائهم ، فإذا كان الأمر بالعكس : الهدَّامون كثيرون والبنَّائون قليلون .. البناء واحد ، والهدامون ألف !!

نحن نحاول أن نحمى مصرنا - حماها الله - من هؤلاء الهدَّامين ، نريد أن نُكثر من البنائين وأن نشد عضدهم ، ونحن نعتقد أن رصيد الفطرة عند هذا الشعب عظيم ، وهو كذلك عند شعوبنا العربية والإسلامية أيضاً ، لأن الشعب المصرى مثل بارز أمام الشعوب الأخرى . إذن .. رصيد الفِطرة مع البنَّائين والداعين إلى البناء الصحيح .

● يتساءل الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى : أيصنع العقل العربى السيارة ونشتريها نحن لنكتب عليها : « عين الحسود فيها عود » أو « كايدة الأعداء » ؟!

هل نستقدم خبراء ليعلمونا نظافة البيوت والمدن والنظام والسير فى الشوارع ؟

فما تعليق فضيلتكم على هذا النساؤل من الشيخ الغزالى ؟

● ● والله هو تساؤل محق ، وهو يؤيد ما قلته فى الحلقة السابقة حينما تحدثنا عن العلم المعاصر وعصر الصناعة الثانى ، وأين نحن من هذا كله ، نحن للأسف فعلاً نستورد أدوات الحضارة ولا نصنعها .. أعنى : مهمتنا أن نستهلك ولا ننتج . مع أننا كما قلت مراراً : أمة « سورة الحديد » ، لم نتعلم صناعة الحديد وقد قال الله تعالى فيها : ﴿ وَأَنزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [1] .. وانظر إلى هذا التعبير ، تعبير له إيحائه ودلالته : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية . ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية .

● وحتى فى الناحية السلوكية أيضاً - ليس فقط فى الناحية الصناعية أو الحضارية - فى الناحية السلوكية يقول : نستقدم خبراء ليعلمونا السير فى الشوارع والنظافه فى البيوت .

● ● مع أننا نحن أصحاب الدين الذى يجعل النظافة من الإيمان : « الطهور شطر الإيمان » .. وهذا الدين بُنِىَ على النظافة ، وأول شيئ ندرسه فى الفقه الإسلامى كتاب اسمه « كتاب الطهارة » . هناك فوضى فى حياتنا مع أن ديننا دين النظام . أحد قاده الفُرس نظر إلى جيش المسلمين أيام سيدنا عمر ، فنظر إلى المسلمين العرب صفوناً صفوفاً ، لا خلل ، لا فُرجه بين الصفوف ، الصف المستقيم ، إمامهم يُقوِّمهم ، يقول لهم : « إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج » .

---

(١) الحديد : ٢٥

نظافة .. يقوم كل واحد منهم إلى الطهاره ينظف نفسه ويستاك فينظف أسنانه ويكرم شعره : « مَنْ كان له شَعر فليكرمه » .

الإمام يركع فيركعون ، يسجد فيسجدون ، يقرأ فينصتون ، غاية فى النظام والنظافة والتعاون والانسجام .

نظر الرجل إلى هؤلاء وقال : « أكل كبدى عمر ، لقد علّم هؤلاء البداة الجفاة مكارم الأخلاق » ! الواقع أن عمر ليس هو الذى علّمهم ، الذى علّمهم وعلّم عمر معهم هو رسول اللّه ﷺ .. هو الإسلام .

نحن للأسف نريد أن نستورد أناساً من غيرنا مع أننا يجب أن نكون نحن فى مرتبة الأولوية لهذه الأمور . فنحن من ناحية العلم لم نعمل بالعلم ، وكذا من ناحية الصناعة ، بل من ناحية الزراعه . كنا نقرأ فى الصغر : إن بلادنا بلاد زراعية ، إذن البلاد الزراعية هذه يجب أن يكون عندها من الخيرات الزراعية ما يغنيها عن غيرها ، ولكن مع الأسف .. لا زلنا عالة على غيرنا .. نحن نستورد من أقواتنا حوالى ٦٠٪ أو أكثر !! .. أين الاستقلال الحقيقى إذا كنا لا نملك القوت الذى نطعمه أبناءنا .. نحن فى حاجة لأن نفكر من جديد على ضوء إسلامنا الذى يعلّمنا أن نكون أحراراً وسادة فى ديارنا .. كيف ننفذ قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ (١) -ورباط الخيل فى هذا العصر هو الدبابات والمصفحات - لأن لكل عصر خيله ، فلا بد من العمل والإنتاج مع الوعى والتصميم . وهذا أيضاً كما قلت فى حاجة إلى بناء الإنسان .

الإنسان هو الذى يحسن أن ينتج ، وينتج شيئاً سليماً وشيئاً جيداً ، فما دام هناك مَنْ ينتج أى شيئ فيقول لك : أهى ماشية ، وخليها على اللّه !! فلن نفلح. إن مسماراً واحداً فى جهاز أو صامولة ، أو لمسة أخيرة فى التشطيب ، تفسد هذا

---

(١) الأنفال : ٦٠

الشئ . نريد مَنْ يفهم معنى قول النبى ﷺ : « إن اللّه يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه » ، « إن اللّه كتب الإحسان على كل شئ » .. وكتبه : أى فرضه ، يعنى إحسان العمل فريضة إسلامية . الناس يسألون بالتعبير العامى : أين قُفلت ؟ لأن اللمسات الأخيرة هذه مهمة .. إننا فى حاجة لأن نبنى الإنسان كى نبنى الصناعة ، ونبنى الزراعة ، ونصنع المجتمع من جديد ، وهذا ما ينبغى أن تقوم به الصحوة الإسلامية المعاصرة ، وأن نتيح لها الفرص لتبنى هذا الإنسان المنشود .

● سأنتقل مع فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى إلى جانب آخر - فى هذه الشهادة - من جوانبكم العديدة .. هو جانب الشعر ، ونسأل : هل عدم اهتمام فضيلتكم بإظهار هذا الجانب .. هل هو موقف من الشعر ؟

● ● أنا كنت أقول الشعر - فى الحقيقة - فى مطلع حياتى .. حتى إنى فى وقت من الأوقات عُرِفْتُ بالشعر أكثر مما عُرِفْتُ بغيره ، كان إذا قيل : القرضاوى ، يقولون : القرضاوى الشاعر ؟ يعنى : قبل الخطيب أو الداعية ، أو كذا . هذه كانت فترة من الزمن . ثم شُغلتُ فعلاً بالجانب الفقهى ، والجانب الفكرى ، والجانب الدعوى ، فشغلنا عن الشعر ، لكن أحياناً تأتى ظروف معيِّنة مثل ظروف المعتقلات التى امتحن بها أبناء الحركة الإسلامية ، فالإنسان كان لا يجد الكتاب الذى يقرأه ، ويكون عنده قدر من الفراغ وقدر من الصفاء فيقول الشعر فى هذه الأوقات . ولذلك تجد كثيراً من شعرى هو شعر المحن [1] .

● لو سألت فضيلتكم عن البيت أو الأبيات التى تعتبرونها شهادة على هذا العصر فماذا تقولون ؟

● ● ● يمكن أقدر أقول بعض أبيات تمثلنى أو تمثل خطى ، أبيات من القصيدة

---

(١) ذهب أكثر شعرى القديم فى أتون المحن التى أصابت الإخوان المسلمين فى مصر ، وبقيت بعض قصائد قديمة ، مع أخرى حديثة ، جمعها بعض الإخوة فى ديوان نشر فى عمّان والقاهرة بعنوان « نفحات ولفحات » .

الشهيرة باسم « النونية » التى أنشأتها فى السجن الحربى (١٩٥٤ - ١٩٥٦) .

كان فى أواخر هذه القصيده أبيات تعبِّر عنى وعن موقفى أقول فيها :

ضع فى يدىَّ القيدَ ، ألهب أضلعى ... بالسوط ، ضع عنقى على السكينِ
لن تستطيعَ حصارَ فكرى ساعة ... أو نزعَ إيمانى ونور يقينى
فالنورُ فى قلبى ، وقلبى فى يدَىْ ... ربى ، وربى حافظى ومعينى
سأعيشُ معتصماً بحبلِ عقيدتى ... وأموتُ مبتسماً ليحيا دينى

● هذه شهادة نعتبرها على عصر مضى أو مرحلة مضت من العصر .

● ● مرحلة مضت نرجو ألا تعود إن شاء اللّه . نحن نعتقد أنه لا يمكن أن نبنى الإنسان الذى ننشده ولا يمكن أن تنتعش القيم وأن ينتعش الإسلام - صانع القيم - إلا فى جو الحرية .

● فضيلة الداعية الإسلامى الكبير الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى .. الأستاذ السيد أبو الحسن الندوى فى رده على تساؤله الذى جعله عنواناً لمؤلفه وهو « ماذا خسر العالَم بانحطاط المسلمين » .. يعدد السيد أبو الحسن الندوى معتمد دار العلوم بالهند عدداً من أمراض الحضارة المعاصرة التى تتمثل فى رأيه فى التعصب والعرقية وبطلان الحاسة الدينية وطغيان المادة والانحلال الخُلُقى والاجتماعى ، وكلها أدواء تتفق مع رؤية فضيلتكم التى ذكرتموها فى الجزء الأول من هذه الشهادة ، ويناشد العرب - مع أنه هندى - أن يعودوا إلى القيادة العالَمية التى هيأتها لهم البعثة المحمدية . وأعلنتها سورة الإسراء ، فهل تشاركونه فضيلتكم هذه الرؤية ؟ وما هو تصوركم لطريقة العلاج ولما نشكو منه ؟

● ● أما إنى أشارك الأستاذ الكبير السيد أبا الحسن الندوى فيما قاله ، فأنا أشاركه مشاركة مائة فى المائة ، وأرى أن العالَم فقد الكثير وخسر الكثير بانحطاط المسلمين وتخلفهم عن القيادة العالَمية ، وهذا الدور لم يشغله أحد ،

ولا يمكن أن يشغله أحد غير أمة الإسلام ، والدور دور المسلمين حتى من الناحية التاريخية . أعنى : إذا نظرت إلى أدوار التاريخ بين الشرق والغرب تجد أن زمام الحضارة فى وقت من الأوقات كان فى يد الشرق : الحضارات الفرعونية والآشورية ، والبابلية ، والفارسية ، والصينية ، والهندية . ثم انتقل هذا إلى الغرب : الحضارة اليونانية والرومانية ، ثم عاد هذا إلى الشرق عن طريق الحضارة الإسلامية التى قادت الدنيا عدة قرون - كما تحدثنا فى الحلقه الماضية - ثم انتقلت الشعلة إلى الغرب مرة أخرى . والغرب الآن لم يُحسن القيام بحق هذه الأمانة . فأصبح العالَم يعانى ما يعانيه الآن من إفلاس روحى فى الجانب الأخلاقى ، للأسف حدث هذا التحلل المذهل .. حتى البلاد التى كنا نعتبرها محافظة فى أوائل هذا القرن . اذهبْ إلى هذه البلاد وانظر ماذا أصابها الآن . وماذا يشكو منه علماؤها أنفسهم ومفكروها .. الأمراض الجنسية ، الإيدز ، والشذوذ وغيره ... هذه الأشياء .. لم تعد هذه البلاد قادرة على أن تظل مستمرة فى هذا الدور القيادى ، وكما قال « كارلايل » أحد فلاسفة هؤلاء القوم وصاحب كتاب « الأبطال » يقول : إننا نعيش على ظل لظل ، فعلامَ يعيش مَنْ بعدنا ؟ أى نحن نعيش على ظل الناس المتدينين الذين بنوا هذه الحضارة ، بل ظل مَنْ بعدهم ممن ورث بعض تدينهم . فعلى أى شئ تعيش الأجيال الآتية ، ولم يبق للإيمان ظل ، ولا ظل ظل ؟!!

يعنى الحضارة الغربية فيها أمراض وأدواء كبيرة جداً ، ولكن عادة الجسم القوى لا تظهر فيه الأمراض ، ولكن حينما يبدأ فى الضعف تبدو الأعراض المَرضية عليه . هذه الحضاره بدأت تشيخ ، والمفروض أن يكون هناك ورثة لهذه الحضارة ، فمَنْ غيرنا ؟

ولكن نحن نعانى أيضاً من العلل ، غير أنّا نقول : نحن الآن فى عصر الصَحوة ، فالمفروض أننا نستفيد من هذه الصَحوة لنرث هذه الحضارة . يجب ألا تفوت علينا هذه الفرصة . هذا ما ينبغى أن نفكر فيه .

هذه الصحوة الإسلامية هى نعمة كبرى على هذه الأمة ، يجب على الجميع أن يعرف هذا : حكّاماً ومحكومين .

يجب أن يكون هناك وعى عام على أن نعترف بهوية هذه الأمة .

مَنْ نحن ؟ نحن مسلمون ، إذن لا ننتصر إلا بالإسلام .

لو انتصر النظام الرأسمالى فى ديارنا وقامت أنظمة رأسمالية ، هل يعتبر هذا انتصاراً لنا ؟

لا .. هو انتصار لبلاد الرأسماليه الأم .. أمريكا وغيرها .

لو انتصرت الماركسية فى بلادنا هل يعتبر انتصاراً لنا ؟

لا .. هو انتصار لروسيا أو للصين أو لغيرهما .

متى ننتصر نحن ؟

حينما ننتصر بإسلامنا .

هذا هو أساس هويتنا الحضارية ، فيجب أن نعرف مَنْ نحن ؟ ولذلك لا بد أن يقوم هذا الوعى العام يشارك فيه كل مَنْ له فكر ورأى .. يجب أن تقام ندوات لمثل هذا

لعلك سمعتَ عن الندوة التى أقمناها عن الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين نحاول أن نُقرِّب المسافة بين هؤلاء وهؤلاء عسى أن يستفيد الإسلاميون مما يسمعونه من العلمانيين ، وعسى أن يستفيد العلمانيون مما يسمعونه من الإسلاميين .

● هذه الندوة التى ضربتم فضيلتكم فيها مثلاً لما يمكن أن تؤدى إليه العلمانية كما يحدث فى لبنان والهند ؟

● ● نعم .. قلت : إن العلمانية ليست حلاً للمشكلة الطائفية ، بعض الناس يقولون : إنه إذا وُجِدَت أديان متعددة فى بلدٍ ما فدواء هذا التعدد للأديان

وتعدد الطوائف هو العلمانية . قال هذا بعض الأساتذه فى ندوة « الإسلام والعلمانية » واحتججتُ عليهم بما يقع فى لبنان والهند وغيرهما . وقد كان هذا حُجَّة قاطعة على العلمانية ودعاتها ، لأن هذه البلاد من يوم نشأتها علمانية ، ومع هذا فإن العلمانية لم تغن عن طائفيتها ، بل الطائفيه موجودة . وفى الهند نحن نرى الهند وما فيها من طائفيه ، طائفة السيخ ، طائفه الهندوس المتعصبين وما يحدث للمسلمين وغيرهم من مجازر فى بلاد شتّى وأوقات شتّى ، ولبنان قريب منا ، والأحداث على مرأى ومسمع منا ، العلمانية لم تغن عنهم شيئاً . بدل هذا الكلام نتصارح : المسلم يجب أن يظل مسلماً ، والمسيحى يجب ان يظل مسيحياً . ولا نضغط على أحد أن ينخلع من دينه ، ندع النفاق السياسى .

أنا لا يمكن أن أترك ديني لأرضى المسيحى ، ولا المسيحى سيترك دينه ليرضينى كمسلم . لماذا لا يبقى كل منا على دينه ، ونتعاون فيما اتفقنا عليه ونتسامح فيما اختلفنا فيه . والإسلام لا يريد أن يذبح مَنْ يخالفنا فى الدين . لا .. بالعكس نحن نقول : لا داعى للنفاق السياسى ، لتكن هناك مصارحة ، أنا مسلم ولى شريعة ، واللّه يأمرنى أن أطبق هذه الشريعة . وهذه القوانين الشرعية قائمة على مُثُل عليا دينية الأصل فى الأديان كلها ، فمن المعقول أن نتفق عليها .

الإسلام حرَّم الزنا فهل المسيحيه تبيح الزنا ؟! الإنجيل يقول : « قد كان مَنْ قبلكم يقولون : لا تزنى ، والحق أقول لكم : مَنْ نظر بعينه فقد زنى » . إذن جاء المسيح بالعفاف والإحصان الذى جاء به الإسلام . هنا نجد نفس المعنى قاله النبى ﷺ : «العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما اللمس، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » .. القولان ينبعان من عين واحدة ، ولذلك ينبغى أن تشيع هذه الروح بيننا وبين أخوتنا المسيحيين ، بدل أولئك الذين يوقظون الفتن النائمة ، ويكيدون فى الخفاء ، وليس هذا فى مصلحة الإسلام ، ولا فى مصلحة المسيحية ، ولا فى مصلحة أى الفريقين ، وإنما من مصلحة أعداء اللّه ، وأعداء الأوطان ، وأعداء الأمة .

● بالعكس .. إن الوحدة الوطنية فى مصر دائماً يُضرب بها المثال فى تجميع المصريين كلهم فى وحدة وطنية واحدة ، ومعروف السماحة التى يعيش فى ظلها المسلمون والأقباط على أرض مصر طوال القرون الماضية ، وهذا شئ معروف فى التاريخ . يمكن لو قلت بعض العناصر لفضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى كسبيل للعلاج من بعض العلل التى نشكو منها نقول : يجب التخلص - مثلاً - من الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر ، والاهتمام بالفروع على حساب الأصول ، ويجب أن نُقرِّب المسافة بين القول والعمل والسلوك .

● ● نعم .. هذا جزء من برنامج أو من ورقة عمل كنتُ قدمتها للملتقى الفكر الإسلامى فى الجزائر منذ سنتين ، كان الملتقى عن الصحوة الإسلامية المعاصرة ، وقدمتُ برنامجاً لترشيد هذه الصحوة مؤلفاً من عشرين نقطة ، فمن ضمن ما قلته : أن ننتقل من الشكل إلى الجوهر ، من الفروع إلى الأصول ، من الجزئيات إلى الكليات ، من الكلام والجدل إلى العطاء والعمل ، من المختَلف فيه إلى المتفَق عليه ، من النوافل إلى الفرائض ، من أعمال الجوارح إلى أعمال القلوب ، من التشاحن إلى التعاون ، من الارتجال إلى التخطيط ، من العاطفية إلى العلمية ، من التعسير إلى التيسير ، من التنفير إلى التبشير . لقد ذكرتُ عشرين نقطة فى الحقيقة ، وكل نقطة من هذه النقط تحتاج إلى شرح وإلى تفصيل .

أضرب لك مثلاً من المختَلف فيه إلى المتفَق عليه ، نجد للأسف أن بعض فصائل الصحوة الإسلامية يكادون يشغلون أنفسهم بالأمور المختلَف فيها ، فى الطهارة والصلاة واللباس والمرفهات ونحوها ، وهذه ليست مشكلتنا ، مشكلتنا الأمور المتفَق عليها المتروكة ؛ يعنى الناس يختلفون : الغناء حلال أم حرام ، الموسيقى حلال أم حرام ، إطلاق اللحية واجب أم غير واجب ، أشياء من هذا النوع للأسف . فى بعض الأماكن أذهب إليها تكاد تكون هذه الأسئلة التى أُسأل فيها حتى فى أمريكا ! ذهب المسلمون - للأسف - إلى أمريكا ومعهم هذه الخلافات الجزئية ، نقلوها معهم من بلادهم ! أقول : يا جماعة إنكم جئتم فى بلاد وصلت إلى القمر فكل ما تسألوننى عنه هو : الذبح بأى طريقة ؟

وأشياء من هذا النوع .. وتطويل اللحية ، وتقصير الثوب .. سبحان الله العظيم !! أهذا كل ما يهمكم من أمر الإسلام ؟!

مرة من المرات قلت لهم : لن أجيبكم عن الأسئلة التقليدية المكررة ، عن اللحم الحلال والذبح وشحم الخنزير والجبنة .... ونحوها .

فللأسف هذه الأشياء الخلافية هى التى تشغل من تفكير بعض الشباب وبعض فصائل الصحوة الإسلامية الشئ الكثير ، فنحن نريد أن نهتم بالأشياء المتفَق عليها ، نهتم بالفرائض بدل النوافل ، عندنا قاعدة تقول : « إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة » ، لأسف تجد أناساً يشتغلون بالنوافل ويضيعون الفرائض !!

تذهب لمصلحة حكومية تجد رجلاً يعطل مصلحتك ؛ لأنه صائم يوم الاثنين أو يوم الخميس !! يا أخى إن شا الله ما صمت - هل من أجل نافلة تصوم وتعطل مصالح الناس ؟ هذا لا يجوز .

الحديث النبوى الشريف يذكر بالنسبة للزوجة أنها لا يجوز أن تصوم تطوعاً وزوجها شاهد الإ بإذنه ؛ لأن هناك حقاً يتعلق بالزوج ، فكل واحد عنده شئ يتعلق بحقوق الآخرين لا يجوز أن تشغله النافلة عن الفرض .

هل تذهب للحج وعليك ديون للناس ؟ هذا لا يُقبل شرعاً .

كنتُ بالأمس مع بعض الأخوه الذين يحجون - لعله - للمرة الأربعين ! ! وقلت لهم : لِمَ هذا ؟ لو أنك يا أخى تركت هذا الحج ، ووسَّعت مكاناً لغيرك من المسلمين بدل الزحام الذى يدوس الناس فيه البَشر تحت أقدامهم من كثرة الزحام ، لو نويت أن تترك مكاناً لغيرك وتقلل الزحام وأنفقت هذا المال فى مصلحة المسلمين ، لكان هذا أولى ، ولكن للأسف لا يفعلون هذا ؛ لأن هناك شهوة ، متعة نفسية وروحية ، ولكن المسألة ليست مسألة متعة . أنا أنظر إلى

ما هو أصلح . واحد ايضاً قال لى : أنا أذهب ببعض الناس يحجون على حسابى من غير القادرين - عشرين فرداً ذاهبين ليحجوا ، فهم محتاجون لمن يخدمهم ، قلت له : ومَنْ كلّفك أن تجعل هؤلاء يحجون على نفقتك وعلى حسابك ؟ إن اللّه جعل الحج على مَنْ استطاع إليه سبيلاً ، فهؤلاء رفههم اللّه وأعفاهم من هذه الفريضه . لماذا تكلفهم أنت ؟ وتكلف نفسك هذا ؟ أليس أولى من هذا مساعدة المجاهدين بدلاً من أن تشبع شوقاً لرجل ، هو مشتاق أن يذهب ليطوف بالبيت ، ويسعى بين الصفا والمروة ! ولكن أولى من إطفاء هذا الشوق : أن تطعم جائعاً فى إفريقيا أو فى آسيا يكاد يقتله الجوع . يئن من الجوع أنين الملسوع ، أن تؤوى مشرداً لا يجد سقفاً يظله ، تدفع ديون مدين مثقل ، تخفف بعض آلام الناس ، تشغّل عاطلاً ، تدرّب عاملاً ، تعلّم أمياً . إن هذه المشاكل هى التى جعلتنى أنادى بإقامة هيئة إسلامية خيرية عالمية لتحقيق وتعميق العمل الخيرى الاجتماعى .

نحن نريد أن نقيم أعمالاً خيرية اجتماعية ، نُعلّم فيها الجاهل ، ونَشغّل العاطل ، ونُدرّب العامل ، ونُطعم الجائع ، ونكسو العارى . ونرعى اليتيم ونؤوى المشرد .

نحن فى حاجة إلى فقه جديد ، لنعلّم الأمة كيف تختار الأولويات .. فقه الأولويات - فقه « مراتب الأعمال » كما نسميه نحن دعاة الصحوة - أمر واجب، لأن الشرع أعطى تسعيرة لكل أمر .. لماذا نشتغل بالمفضول ونترك ما هو أفضل منه ؟ نشتغل بالمرجوح ونترك الراجح . نشتغل بالنافلة ونترك الفريضة ، نشتغل بفرض الكفاية ونترك فرض العين ، نشتغل بفرض الكفاية الذى قام به البعض ونترك فرض الكفاية الذى لم يقم به أحد . نسأل اللّه أن يوفقنا إلى فقه كتابه وسُنّة نبيه ، وإلى فقه دينه فقهاً راشداً صحيحاً ، وهذا هو أساس نهضتنا الحقيقية وأساس بنائنا المنشود لهذا العصر .

● وهكذا - أيها الأصدقاء - نصل إلى ختام هذه الشهاده الثرية التى قدَّمها لنا المفكر الإسلامى الكبير فضيلة الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوى . نشكره عليها شكراً جزيلاً ونرجو أن نلقاه دائماً على خير .

● ● ونشكرك يا أخ عمر ، ونسأل اللّه أن ينفع ببرنامجك هذا .. أن ينفع به كل مَن استمعه ، وأن ينفعنا نحن به أيضاً .. وأن يجعل يوم أمتنا خيراً من أمسها ، وأن يجعل غدها خير من يومها . اللّهم آمين .

* * *